

تكنولوجيا الاتصال الحديثة واختراق الخصوصية الثقافية للأسرة الحضرية الجزائرية.

د. حديد يوسف قسم علم النفس
أ. براهيمة نصيرة قسم علم الاجتماع
جامعة جيجل (الجزائر)

ملخص:

يتناول هذا المقال تأثير تكنولوجيا الاتصال الحديثة على التنشئة الاجتماعية للفرد داخل الأسرة الحضرية الجزائرية، في زمن أصبح فيه العالم قرية صغيرة بفضل وسائل الاعلام الجديد التي لا تؤمن بالحدود والمسافات، حيث تمكنت من اختراق الخصوصية الثقافية للأسرة في المجتمع الجزائري وأصبحت مصدرا رئيسيا من مصادر التنشئة الاجتماعية تستطيع أن تشكل فردا فعالا في المجتمع كما تستطيع أن تشكل فردا منحرفا فيه.

الكلمات المفتاحية: تكنولوجيا الاتصال، الخصوصية الثقافية، الأسرة الحضرية.

Résumé :

Cet article traite de l'influence de la nouvelle technologie de communication sur la socialisation de l'individu au sein de la famille urbaine algérienne, en une période où le monde est devenu un petit hameau grâce aux nouveaux moyens d'information qui ne croient ni aux frontières ni aux distances. Cette technologie a pu pénétrer la particularité culturelle de la famille en milieu social algérien et est devenue une source principale et primordiale dans la socialisation. Elle peut façonner l'individu et le rendre actif et positif, comme elle peut faire de lui un individu marginal et négatif.

Mots clés : Technologie de communication, La particularité culturelle, la famille urbaine

Summary :

This article examines the impact of modern communication technology on the socialization of the individual within the urban Algerian family, in time become the world is a small village thanks to the new media, which does not believe in borders and distances, where it managed to penetrate the cultural specificity of the family in Algerian society and has become a major source of socialization. Are able to form effective individuals in the community, can also able to form an individual skewed it .

Key words: communication technology, cultural specificity, urban family.

أولاً: الإشكالية

لم يبق المجتمع الجزائري على غرار مجتمعات العالم في معزل عن تلك الثورة العلمية و التكنولوجية التي عرفها القرن العشرين ، أين اخترلت تكنولوجيات الاتصال الحديثة الأبعاد و المسافات و لم تكتفي بتجاوز الحدود السياسية و الجغرافية بين المجتمعات و إنما تعدت ذلك إلى الحدود الثقافية ، هذا ما خلق للوجود الاجتماعي مجموعة من الظواهر الاجتماعية تهدد الهويات الثقافية للمجتمعات خاصة تلك المستوردة للتكنولوجيا ، حيث أصبحت هذه التكنولوجيات الحديثة للاتصال مصدرا رئيسيا من مصادر التنشئة الاجتماعية تستطيع أن تشكل فردا فعلا في المجتمع يساهم في بناءه كما تستطيع أن تشكل فردا منحرفا في المجتمع ، خاصة و أنه ليس بمقدور أي بلد أن يعيش بمعزل عن هذا التقارب الاتصالي الذي شكل نظاما عالميا يعتمد على انفتاح إعلامي لا تتحكم فيه الأنظمة .

وتعتبر الأسرة اللبنة الأساسية للمجتمع والتي يؤدي استقرارها وتوازنها وأدائها لأدوارها الوظيفية إلى بناء مجتمع تتناسق وتتكامل مختلف تشكيلاته، لذا وجب على المختصين والباحثين النظر عن كتب لكل الظواهر الاجتماعية التي تؤثر على هذه اللبنة سواء بالإيجاب أو بالسلب.

من هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة النظرية لتسلط الضوء على دور تكنولوجيا الاتصال الحديثة في اختراق الخصوصية الثقافية للأسرة الجزائرية وذلك من خلال التعرض إلى جملة من النقاط:

- ماهية تكنولوجيا الاتصال.
- الخصوصية الثقافية والأسرة الجزائرية الحضرية.
- دور تكنولوجيا الاتصال في اختراق الخصوصية الثقافية للأسرة الجزائرية الحضرية.

ثانياً: ماهية تكنولوجيا الاتصال:

تعتبر ظاهرة الاتصال قديمة قدم المجتمعات الإنسانية حيث نستطيع أن نلمس ملامحها منذ البدايات الأولى للتواجد الإنساني ، إذا كان لا بد من وجود وسائل يعبر بها الإنسان عن أفكاره للآخرين و ينقل لهم خبراته ، لذا ابتكر وسائل بدائية حسب ما أتيج له، فاستخدم بداية صوته و كانت بذلك المرحلة الأولى للاتصال أو ما يطلق عليها " بالمرحلة الشفافية الكلية أو مرحلة ما قبل التعلم وكانت وسيلة الاتصال الرئيسية فيها هي الكلمة المنطوقة و الحاسة الأساسية هي حاسة السمع ثم أتى تطور لغة لكي يعطي قوة للاتصال الإنساني، ونتيجة لذلك اقترب الناس من بعضهم البعض و اتسموا بالعاطفية و كانت الشائعة هي أول شكل من أشكال الإعلام و الاتصال حيث كانت الأخبار تنتقل من الفم إلى الأذن و بانقلها كانت تضخم بل كانت تتغير و تشوه حيث تضيع حقيقتها في أحيان كثيرة (حسن عماد مكاوي و محمود علم الدين، 2008، ص 43) .

وبعد أن حول الإنسان تلك الرموز و الإشارات إلى حروف هجائية منظمة انتقل الإنسان إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة اللغة المكتوبة و استطاع أن يحفظ من خلالها ما ابتكره خلال الزمان و يوزعها عبر المكان في سجلات مادية أكثر فعالية من الحديث و الكلام و تعد هذه الثورة الثانية في مجال الاتصال و كانت أقرب وسيلة حينها هي الحجار و العظام و الخشب و رغم أن نقلها عبر المكان كان غير ميسورا إلا أنه استطاع أن يستحدث أساليب أخرى لتحدي هذه العقبة و كان أفضلها التواصل عن طريق النار و الحمام الزاجل و المرايا العاكسة و الطبول وغيرها ، إلى اكتشاف ورق البردي الذي سهل عليه المهمة كثيرا ، "إلا أن العقل البشري ظل يتطلع المزيد من التطور حتى وصل به ذلك إلى اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر تقريبا و سهل بتلك الوسيلة سبل المعرفة للإنسان و بفضلها انتشرت الصحف في العالم و تعد هذه الثورة الثالثة في مجال الاتصال الإنساني التي مهدت لميلاد وسائل أخرى تعتمد غالبيتها على وجود أشياء مصاحبة لها يستطيع من خلالها نقل رسائله المبسطة إلى الآخرين و التي سماها دانييل بيل

بمرحلة الاتصال السلكية و اللاسلكية " (محمد تيمور و محمود علم الدين، 1997، ص 145) التي تم فيها اختراع الكثير من تكنولوجيات الاتصال على غرار الهاتف ، التلفزيون ، المذياع ، حيث كانت أكثر قدرة على تلبية حاجيات الإنسان من خلال الوصول إلى الأطراف النائية فتحققت بها الثورة الرابعة في مجال الاتصال الإنساني وخاصة مع ظهور تكنولوجيات حديثة أخرى خاصة (الكاميرا ، السينما ، اللاسلكي ، الإذاعة ، أشرطة الكاسيت المسموعة و المرئية ، وبعد الحرب العالمية الثانية شهدت تكنولوجية التلفزيون تحسنا في تقديم صور أكثر دقة و وضوحا و حتى أنه في يومنا هذا لا يزال منافسا قويا لغيره من الوسائل الإعلامية الأخرى ، ومن أهم اختراعات القرن العشرين بل وكل العصور ، و ما زاد الوضع أكثر تطورا هو اختراع الحاسب الإلكتروني وكذا الأقمار الصناعية التي جعلت من نقل الحدث لحظة وقوعه على شاشة التلفزيون من أي مكان في العالم أمرا ممكنا و تعد هذه الثورة الخامسة في مجال الاتصال الإنساني (عبد الباسط محمد عبد الوهاب ، 2005، ص90) .

- تعريف تكنولوجيا الاتصال:

قبل أن نعرف تكنولوجيا الاتصال يجب أولاً أن نحدد ماهية التكنولوجيا في حد ذاتها، ذلك أن الجديد فيها ليس معناها وإنما لفظها، فالظاهرة نفسها قديمة قدم المجتمعات الإنسانية، ومن الخطأ أن نربط بين التكنولوجيا وبين المخترعات الحديثة التي تعتبر آخر المراحل في تطور الظاهرة الاتصالية، وكلمة تكنولوجيا كلمة معربة لا أصل لها في كتب اللغة والقواميس وما يقابلها في اللغة العربية هو مصطلح "تقنية" وكلمة تكنولوجيا مكونة من مقطعين هما: "تكنيك" والذي معناه الطريق أو الوسيلة و "لوجي" التي تعني العلم، وبالتالي يكون معنى الكلمة كلها "علم الوسيلة" الذي بها يستطيع الإنسان أن يبلغ مراده (عبد الباسط محمد عبد الوهاب، ص250)، كما ويحدد الدكتور زاهر أحمد مصطلح التكنولوجيا في ثلاث مفاهيم أساسية:

أولاً: التكنولوجيا عملية: وهو التطبيق المنظم للمحتوى العلمي أو المعلومات بغرض أداء محدد يؤدي في النهاية إلى حل مشكلة معينة.

ثانياً: التكنولوجيا كمنتج: محصلة تطبيق الأساليب العملية يكون في المساعدة في إنتاج الآلات والخامات، فالفيلم كمادة خام وآلة العرض نفسها هما نتاج للتطبيق التكنولوجي للمفاهيم والأساليب العلمية.

ثالثاً: التكنولوجيا كمزيج للأسلوب والمنتج: من هذا يتضح أن عملية الاختراع تصاحبها عملية إنتاج وبالتالي لا يمكن فصل التكنولوجيا كأسلوب عنها كمنتج وأوضح مثال على ذلك هو الحاسب الآلي، فنفس الجهاز يصاحبه دائماً تطور في إنتاج البرامج وتوسع كبير فيها (عبد الباسط محمد عبد الوهاب، ص 252)

أما الاتصال فهو تبادل الأفكار و المعلومات و الآراء بين طرفين أو أكثر عن طريق أساليب و وسائل مختلفة مثل الإشارة ، الكلام ، القراءة و الكتابة و بالتالي نعني بتكنولوجيا الاتصال " أي أداة أو جهاز أو وسيلة تساعد على إنتاج أو توزيع أو تخزين أو استقبال أو عرض البيانات و استرجاعها (فضيل دليو، 2010، ص25) ، من خلال النظر إلى التعريف المقدم لتكنولوجيا الاتصال نجد أنه من الصعب إيجاد وجه للشبه بين مختلف وسائل تكنولوجيا الاتصال مثلاً: الهاتف ، الآلة الكاتبة ، الحاسب الإلكتروني من الناحية الظاهرية ، أما من الناحية الضمنية للدور الذي تؤديه هذه الأجهزة فإننا نجد أن تكنولوجيا الاتصال تزيد من طاقة الإنسان وقدراته المختلفة وبالتالي يمكن القول أن تكنولوجيا الاتصال هي مجموع التقنيات أو الأدوات أو الوسائل أو النظم المختلفة التي يتم توظيفها لمعالجة المضمون أو المحتوى الذي يراد توصيله من خلال عملية الاتصال الجماهيري أو الشخصي أو التنظيمي أو الجمعي و التي يتم من خلالها

جمع المعلومات و البيانات المسموعة أو المكتوبة أو المصورة أو المرسومة أو المسموعة المرئية أو المطبوعة أو الرقمية من خلال الحاسبات الإلكترونية ثم تخزين هذه البيانات و المعلومات و استرجاعها في الوقت المناسب و أخيرا نشر هذه المواد الاتصالية و نقلها من مكان إلى آخر و تبادلها، وقد تكون تلك التكنولوجيات يدوية أو آلية أو إلكترونية حسب مرحلة التطور التاريخي لها و المجالات التي يشملها هذا التطور

- وظائف تكنولوجيا الاتصال:

لتكنولوجيا الاتصال مجموعة من الوظائف لعل أهمها:

1. التحول من الصوتي إلى الرقمي: بعد استخدام شبكات الهاتف لنقل بيانات الكمبيوتر تضاعفت الحاجة لتبادل البيانات و انقلب الوضع فأصبحت الشبكات تصمم أصلا لنقل البيانات و أصبحت المكالمات الهاتفية عملا ثانويا لها , وأدى نقل البيانات رقميا إلى تحسن واضح في مستوى الخدمات خاصة فيما يتعلق بتقليص حجم المعدات الاتصال و التخفيف من وزنها
2. التحول نحو الرخيص المتاح دوما: عندما انتشر استخدام التكنيك الرقمي في الأجهزة الإلكترونية فإن ذلك أدى إلى تصغير المعدات ووفرته وبالتالي رخصها.
3. التحول من الإلكترون إلى الفوتون: ظلت الإشارة الهاتفية تنتقل عبر الأسلاك النحاسية كتيار كهربائي ضعيف إلى أن حدثت النقلة النوعية باختراع الألياف الضوئية، وهكذا استبدل تيار الإلكترون المعرض لتشويش بتيار الفوتون (جسيمات الضوء) النقي.
4. التحول من الخاص إلى العام و من المتنوع إلى المتكامل: بدلا من احتكار الشخص لخط تليفوني واحد استحدث أسلوب تحويل حزم الرسائل بديلا عن تحويل الدوائر , في ظل هذا الأسلوب تختزن الرسائل ثم توجه بواسطة مراكز تحويل الرسائل إلى غايتها ، يتم ذلك عبر أي مسار متاح يربط بين نقطة الأصل و نقطة الهدف دون الالتزام بمبدأ النقل عن طريق أقصر مسار بينهما ، و هذا النظام المتكامل لا يفرق بين البيانات التي ينقلها سواء كانت عبارة عن مكالمات هاتفية أو رسائل فاكس أو بيانات كمبيوتر فكلها بالنسبة له سلسلة من البيانات الرقمية يتم توجيهها عبر مسارات الشبكة إلى أن تصل إلى غايتها.
5. العمل على التحول من السلبي (أحادي الاتجاه) إلى التجاوبي (ثنائي الاتجاه): معظم نظم بث المعلومات تعمل على أساس الطور السلبي حيث تنتقل المعلومات في اتجاه واحد من المرسل إلى المستقبل إلى أن ظهرت مرافق معلومات تعمل على أساس الطور التجاوبي مثل شبكات الفيديو تكس ثنائية الاتجاه وبالتالي أصبح من الممكن تبادل الرسائل مع مراكز المعلومات.
6. التحول من الثابت إلى النقال: أصبح من الممكن أن يحمل معه الإنسان معلومات وبيانات كثيرة وبرامج وملفات أينما ذهب من خلال تكنولوجيات الاتصال الحديثة مثل الهاتف النقال، الكمبيوتر المحمول. (نبيل علي، 1994، ص71،72)

أهم أنواع تكنولوجيا الاتصال:

- 1- **الانترنت:** هي اختصار لعبارة الشبكة الدولية وهي شبكة تربط بين العديد من شبكات المعلومات وقواعد البيانات في معظم دول العالم ويمكن لأي فرد من أي مكان النفاذ إليها.
- 2- **الهاتف النقال:** "هو وسيلة أو جهاز صغير يستخدم للتواصل، موصل بشبكة اتصالات لاسلكية رقمية تسمح ببث واستقلال الرسائل الصوتية و النصية و الصور" (فضيل دليو، 2003، ص170) ويعتبر الهاتف النقال أحد أهم تقنيات الاتصال الحديثة التي تطور باستمرار حتى أصبحت أكثر من مجرد وسيلة اتصال صوتي و تعديها إلى القيام بمهام الكمبيوتر، الكاميرا، آلة التصوير، المسجل، آلة حاسبة، المذياع... الخ.
- 3- **الأقمار الصناعية:** عبارة عن جهاز يدور في الفلك الخارجي حول الأرض أو حول كوكب آخر ويقوم بأعمال عديدة مثل الاتصال، الفحص، الكشف.
- 4- **الإذاعة:** الإذاعة كمؤسسة وكوسيلة اتصال تعد وعاء للمضمون الثقافي الذي تحفل به برامجها وهي بذلك تصنف ضمن المواد الحاملة للثقافة والعاملة على نشرها بين مستعمليها. (محمد الفاتح حمدي، 2011، ص120).

خصائص تكنولوجيا الاتصال:

- 1- **التفاعلية:** وذلك لوجود سلسلة من الأفعال الاتصالية، فالمرسل يستقبل ويرسل في الوقت نفسه، وكذلك المستقبل ومثال ذلك بعض الوسائل التي يوجد فيها تفاعل بين المستخدم والمرسل مثل الهاتف، التلفاز التفاعلي والمؤتمرات عن بعد والكمبيوتر الشخصي الذي يستخدم في الاتصال وكذلك البريد الإلكتروني... الخ.
- 2- **اللاتزامنية:** وتعني إمكانية إرسال الرسائل واستقبالها في وقت مناسب للفرد المستخدم ولا تتطلب من كل المشاركين أن يستخدموا النظام في الوقت نفسه فمثلا في نظم البريد الإلكتروني ترسل الرسالة مباشرة من منتج الرسالة إلى مستقبلها في أي وقت دون الحاجة لتواجد المستقبل للرسالة.
- 3- **قابلية الحركة:** هناك وسائل اتصالية كثيرة يمكن لمستخدميها الاستفادة منها في الاتصال من أي مكان مثل الهاتف النقال، جهاز الفيديو يوضع في الحيب، وجهاز فاكسميل يوضع في السيارة وحاسب آلي نقال مزود بطابعة.
- 4- **قابلية التحويل:** وهي قدرة وسائل الاتصال على نقل المعلومات من وسيط إلى آخر كالتقنيات التي يمكنها تحويل الرسالة المسموعة إلى رسالة مطبوعة وبالعكس، والأفلام السينمائية التي يمكن عرضها في دور السينما وعلى أشرطة الفيديو وعلى الأسطوانات المدمجة على الرغم من اختلافها في الشكل.
- 5- **الشيوع والانتشار:** ويعني به الانتشار المنهجي لنظام الاتصال حول العالم وفي داخل كل طبقة من طبقات المجتمع ولا يكون حكرا على الاثرياء فقط وإنما يشمل كل فئات وطبقات المجتمع.
- 6- **الكونية:** البيئة الأساسية الجديدة لوسائل الاتصال هي بيئة عالمية دولية حتى تستطيع المعلومة أن تتبع المسارات المعقدة، كتعدد المسالك التي يتدفق عليها رأس المال إلكترونيا عند الحدود الدولية في أي مكان في العالم (أحمد زاهر، 1997، ص 20، 19، 21).

ثالثاً: الخصوصية الثقافية والأسرة الحضرية الجزائرية:

تمثل الثقافة "المحتوى الأخلاقي والفكري والجمالي الذي يوجه السلوك الفردي ويحدد الفعل الاجتماعي المشترك لمجموعة سكانية محددة وبهذا المنطق تكون الثقافة هي القيم المشتركة التي تجعلنا نميز بين ثقافات سكان العالم " (لوي الصافي، 2001-2002، ص 229) وبالتالي فالثقافة هي مجموع العادات والقيم والتقاليد والأفكار التي تتميز بها جماعة معينة عن جماعات أخرى والتي تتأسس عبر تاريخ الجماعة آخذة بعين الاعتبار كل الظروف المحيطة بتواجدها سواء أكانت جغرافية أو سياسية أو دينية.

فيما سبق كنا نلمس الحدود المرسومة بين مختلف الشعوب والتي توضح جليا الاختلافات بينها قبل انفتاحها على بعضها بفعل تطور وسائل الاعلام والاتصال التي اخترقت الخصوصية الثقافية ليس بمفهوم محلي بل بمفهوم عالمي إذ أنه لكل جماعة بشرية مثقفة رؤيتها الذاتية لخصوصيتها الثقافية التي تحدد هي الأخرى طرح 5 أسئلة:

- سؤال الهوية: حيث يسعى الفرد إلى تعريف ذاته وانتماءاته على أساس القطر واللغة والديانة
- سؤال التراث: يتضمن التساؤل عن أبرز الرموز التاريخية التي يعتز ويتمسك بها الأفراد لأنها تعبر عن أحد مكونات هويتهم.
- سؤال الواقع: وهو تساؤل الأمم عن واقعها المعيشي وعن مدى تخلفها أو تقدمها عن بقية الأمم ومعيار ذلك التقدم أو التخلف.
- سؤال الفرضية البديلة: يتعلق الأمر هنا بالخيارات المطروحة ومدى التعارف بينها وهو يطرح قضية البدائل المنافسة.
- سؤال المستقبل: ويتعلق بتأثير هذا الاستيراد الثقافي من الآخر على الهوية، وهذا السؤال يطرح كرد فعل لكافة الأسئلة السابقة وكيفية تأثيرها على سؤال الهوية (معتز عبد الله عبد الفتاح)

إن الخصوصية الثقافية تعبر عن ذلك التمايز الذي يحدد ملامح ذاتية خاصة بكل جماعة على المستوى القيمي و الذي تحدد من خلال الوعي بالوجود و الهدف من هذا الوجود أصلا وفقا للمعطيات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية المحيطة بالجماعة في حدود زمان ومكان وجودها، وهذا ما جعل استخدامات المصطلح تعبر في كل مرة عن إيديولوجية مستخدمها.

أما الأسرة فتعتبر مؤسسة اجتماعية لتلقين أولى مبادئ السلوك لأفرادها ، والأسرة الجزائرية أسرة عرفت الكثير من التحولات و التغيرات التي تجعل من دراستها أمر يجب أن يأخذ في الحسبان مختلف السياقات التاريخية التي أثرت على تقسيم العمل و توزيع الأدوار داخلها، وهنا لا يمكن أن نطلق وصفا عاما تدرج تحته كل الأسر الجزائرية التي تمايزت إلى أسر تقليدية لا تزال ملامح النظام الأبوي تسيطر على نمط معيشتها و أسرة نووية تخلصت نهائيا من النظام الأبوي و لبست ثوبا جديدا ، لا وجود له في تاريخ الأسرة الجزائرية وأسر مزجت بين النظامين فاحتفظت برواسب النظام الأبوي في مجالات و لبست ثوب الحداثة في مجالات أخرى .

"وقد أكدت عدد من البحوث والدراسات منها المسح الجزائري حول صحة الاسرة لسنة 2002 على تحول الاسرة الجزائرية من اسرة ممتدة إلى اسرة نووية، المكونة من ابوين وابن أو عدة أبناء غير متزوجين حيث أصبحت تشكل أكثر من 60% من مجموع الأسر الجزائرية (المسح الجزائري حول صحة الأسرة 2004، ص 23) ويرجع هذا التحول أو الاتجاه إلى صعوبة العيش و متطلبات الحياة التي تتيسر أكثر كلما انفصل الابن بعائلته عن العائلة الكبيرة ، خاصة مع عدم الرغبة في التدخل في شؤون تسيير أسرته فنتج في المقابل تحول جذري في

علاقات الاسرة و ادوارها ووظائفها ورقابتها على أفرادها ، وظهرت دور لمؤسسات أخرى تشارك في التنشئة الاجتماعية إلى جانب الاسرة ، جماعة الرفاق ، المسجد ، على غرار التلفاز ، السينما القنوات الفضائية، الأنترنت ، التي يتعارض فيما بينها في المضمون الغير متناسق فنتج لنا في النهاية تنشئة اجتماعية مشوشة تؤدي إلى الارتباك و الازدواجية في شخصية الفرد الذي احتدم لديه الصراع بين القيم الدخيلة على المجتمع الجزائري التي تعبر عنها مختلف الافلام و المسلسلات و البرامج و بين الاحتفاظ و الاعتزاز بخصوصية الثقافة ، كل هذا وذاك خلق لنا مجتمعا جزائريا غير متناسق نجد فيه كل التناقضات على مستوى اللباس و القيم و مختلف أشكال الحياة .

إن تموقع الاسرة في المدينة يجعلها أكثر جرأة و قدرة على الانسلاخ من النظام الأبوي مقارنة بالأسرة الريفية ذلك أنها الاكثر عرضة لمجموع الظروف التي تؤدي إلى هذا التحول ، إن الواقع الجديد للأسرة الحضرية الجزائرية المتسم بعدم الاستقرار و التنقل المتواصل من طرف كلا الأبوين لتحصيل لقمة العيش اسهمت في تقليص دورها في عملية التنشئة الاجتماعية و بخصوص الرقابة خاصة على المواد الاعلامية المتاحة من خلال مختلف التكنولوجيات الاعلام و الاتصال التي أصبحت منافسا قويا لسلطة الاب التقليدية خاصة و أن حضوره ليس دائما هو الآخر باعتبار أن نموذج الاحترام و الوفاق والطاعة تستمد شرعيتها من القاعدة الاجتماعية و الدينية التي أصبحت تنافس من طرف المرجعية الاقتصادية و الاعلامية .

رابعاً: دور تكنولوجيا الاتصال في اختراق الخصوصية الثقافية للأسرة الجزائرية الحضرية:

تشكل تكنولوجيا الاتصال في كل مجالاتها جانبا مهما يستحق الدراسة و التحليل باعتبارها الجانب الحيوي الديناميكي من عملية الاتصال ككل سواء أكانت عن طريق تكنولوجيا الاتصال المطبوع (كما في الصحافة و المطبوعات دورية و الغير دورية) أو عن طريق تكنولوجيا الاتصال المسموع (كما في الراديو و التسجيلات) أو تكنولوجيا الاتصال المرئي (كما في التلفزيون ، السينما ، الفيديو) و قد اكتسبت وسائل الاتصال أهمية كبيرة في القرن العشرين خاصة الوسائل الالكترونية باعتبارها قنوات أساسية للمعلومات و الاخبار و الترفيه ، و أصبحت برامج التلفاز تعكس قيم المجتمع و ثقافته و أساليب معيشة أفرادها ، في حين عكست برامج الراديو اهتمامات الناس و قضاياهم الأساسية و قدمت الافلام السينمائية شيء من واقع المجتمع و طموحاته و ساعدت الاعلانات في تلبية حاجيات الناس إلى السلع و الخدمات و أصبحت تكنولوجيا الاتصال لا غنى عنها بل كل عالم الانسان الذي لا يستغنى عنه أبدا في كافة المجالات الثقافية و السياسية ، الاقتصادية ، التعليمية.

تعتبر التكنولوجيا المحرك الاساسي للتغير الثقافي و الحضاري و في نفس الوقت من أهم افرزات هذا التغير ، الذي لا يمكن أن يقبل أو يستوعب إلا إذا أدنت له الثقافة بذلك إذا فمدى تمسك المجتمعات بخصوصياتها الثقافية هو الذي يحدد الدرجة التي تمرر بها ثقافات أخرى عبر مختلف تكنولوجيات الاتصال ، و يلتقي الاتصال و الثقافة في أوجه كثيرة فمن ناحية نجد أن كل العمليات الثقافية لا تخلو من تفاعلات اتصالية و كل العمليات الاتصالية لا تخلو من تفاعلات ثقافية " فنجد أن الاتصال يساهم في نشر المعارف و دفع عجلة الأنشطة الثقافية كما وتعتبر رموزه جزء من الثقافة السائدة و اللغة و الاشارات و الايحاءات التي تعتبر عناصر ثقافية وفي نفس الوقت أدوات لنقل ثقافة المجتمع " (عسان منير حمزة , 2002, ص103) ، وبالتالي لا أحد ينكر الدور الكبير الذي لعبته هذه التكنولوجيات في الاختراق الثقافي للدول و الشعوب التي لا تستوردها (التكنولوجيات) أي أن السيطرة أصبحت للتكنولوجيا و من يسيطر عليها و الذي أصبح بإمكانها بث الثقافة التي تريد حتى أصبحت صناعة ممنهجة لغسل الأدمغة أي أن الحديث أصبح عن عولمة ثقافية تعني تعميم نموذج ثقافي واحد على المجتمعات أخرى باستهداف مفاهيمها الحضارية و قيمها الثقافية و هذا

ما أشار إليه برهان غليون في ندوة عقدت بالقاهرة عام 1997 تحت عنوان مستقبل الثقافة العربية" إن العولمة الثقافية تقوم بتعميم أزمة الهوية حيث تتضاءل مع تزايد الثقافات الأقوى في فضاء مفتوح على الثقافة الوطنية و نفوذها حيث تسعى العولمة الثقافية إلى نحر الهوية المحلية عبر الاستلاب و تهجين وفرض نسق واحد من القيم , فأصبحت هوية الثقافة مهددة في ظل التراكم الكمي الهائل و النوعي المبرمج لثقافة العولمة(عبد الرزاق جليبي, 1984,ص68) ، و يذكر بورديو في نفس السياق دور المحدد الاقتصادي على الهيمنة الاعلامية أي اصرار مالكي وسائل و تكنولوجيات الاتصال على السيطرة التامة على المادة الاعلامية و توجيهها حسب ما يخدم مصالحها الاستراتيجية و ذلك عند حديثه عن التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول " من الممكن أيضا أن نفكر أيضا في الرقابة الاقتصادية في التحليل النهائي من الحقيقي كذلك القول بأن الذي يمارس الضغط على التلفزيون هو المحدد الاقتصادي ، هذا يعني أنه لا يمكن السعي لقول شيء عبر التلفزيون غير الذي تحدد مقدما من قبل اولئك الذين يمتلكون هذه المحددات ، أي من قبل المعلنين الذين يدفعون ثمن اعلاناتهم ، من قبل الدولة التي تمنح الدعم " (بيار بورديو ، 2004 ، ص 44) طبعا و الكلام يسحب على مختلف وسائل و تكنولوجيات الاتصال و الاعلام ، من أجل هذا طالبت بعض التيارات الفكرية بتجنب الاقتراب من هذه التكنولوجيات كونها اختراق ثقافي و نوع من أنواع الاستعمار في حين اعتبرها آخرون تقنيات تساعد في امتزاج الثقافات و الحضارات و الخلل ليس فيمن يرسل بثقافته ولكن فيمن يستقبلها حيث لن تؤدي هذه التكنولوجيات دورها الايجابي إلا في اطار تبادل ثقافي متوازن خال من أي سيطرة أو هيمنة أو تجاهل أو محاربة لثقافة جهة معينة ، وهذا ما لن يتحقق أبدا لأن تكنولوجيا الاتصال مرتبطة ارتباطا وثيقا بظاهرة العولمة التي تعني تجاوز الحدود الوطنية و الاختلافات الثقافية و الحواجز الاقتصادية مما يترك تأثيرات هائلة على صناعة الإعلام في العالم الذي تحدث فيه تلاعبات كثيرة بعقول من يتلقونه بل و بعقول من ينتجونه أيضا إذ أن " الأفراد الذين يشتركون في ذلك يخضعون للتلاعب و التأثير بقدر ما يمارسونهم أنفسهم عملية التلاعب و التأثير ، إنهم يمارسون التلاعب و التأثير على الآخرين في كثير من الأحيان بشكل أفضل مما يخضعون له هم أنفسهم من تأثير و تلاعب بدرجة أكبر و بشكل لا واع " (بيار بورديو ، 2004 ، ص 45) ، خاصة و أن تكنولوجيا الاتصال تتحول شيئا فشيئا نحو النظر إلى السوق العالمية بوصفها سوقا واحدة و الواقع أن المزيد من النشاط الإعلامي يخضع لعدد محدود من الشركات العملاقة مما يشكل تهديدا للنراء الثقافي الذي ميز البشرية كما وقد ساعد البث المباشر من خلال الأقمار الصناعية على التخطي المعلوماتي للحدود القومية من خلال الشركات المتعددة الجنسيات ضف إلى ذلك الاتفاقيات الدولية لمنظمة التجارة العالمية التي لا تضع عراقيل أمام عبور مختلف السلع و المنتجات بما فيها المنتج الثقافي و الإعلامي ، أما العولمة في بعدها الثقافي فتحمل في طياتها تهميشا للثقافات الوطنية بل و إلغاؤها أحيانا وبالتالي .

من العيب أن نتحدث عن ولوج أي ظاهرة لأي مجتمع دون العودة إلى وحدة التحليل الاجتماعي في البحوث الاجتماعية و المتمثلة في الأسرة التي كانت أول و أكثر المتأثرين بإيجابيات و سلبيات تكنولوجيا الاتصال و الحديث هنا طبعا عن الأسرة الحضرية باعتبار أن الأسرة الريفية أقل استعمالا و عرضة لتكنولوجيا الاتصال الحديثة و لعل أكثر تكنولوجيات الاتصال الذي لا يكاد يخلو بيت أسرة جزائرية منه ومنذ مدة زمنية معتبرة هو التلفاز هذا الجهاز الذي رغم حداثة و تميز ما اخترع بعده إلا أنه ظل ينافس كل التقنيات و يحتل الصدارة في كثير من الاحيان ، و لن نستطيع أن نتحدث عن اختراق ثقافي لمجتمع ما عن طريق التلفاز إذا اقتصر الامر على أن يعرض فيه البرامج المحلية الخاصة بالبلاد نفسه وإنما الامر متعلق بالقنوات الفضائية التي سهلت الأقمار الصناعية ولوجها إلى كل البيوت الجزائرية ، بل إن الاحصائيات تثبت أن القنوات المحلية الجزائرية آخر اهتمام المجتمع الجزائري خاصة قبل فتح المجال للقنوات الخاصة التي خفتت من وطأة لجوء الأسرة الجزائرية إلى تتبع برامج أجنبية سواء اكانت عربية أو

غريبة و يتضح لنا جليا هذا التأثير من خلال التقليد الأعمى و الظاهري لما يعرض في الأفلام و المسلسلات و مختلف البرامج على عقول الجزائريين على غرار المسلسلات المكسيكية و التركية و السورية ربما نتذكر في وقت ليس ببعيد كيف كان حال الشارع الجزائري في وقت عرض مسلسل كساندرا ثم مسلسل مهند ونور ثم لميس و العشق الممنوع وغيرها من مسلسلات كثيرة مهدت لغزو وليس فقط ثقافي و إنما اقتصادي أيضا فلم يقتصر الامر على ظهور ما يعرف بتسريحة سمر ، إنما تعداه إلى معطف لميس ثم امتلاء محلات النساء بمختلف الملابس التركية الصنع ، وأصبح التاجر إذا أراد الترويج لسلعته و مدحها يكفي أن يقول أنها تركية ومن قبل أنها فرنسية و من قبل مكسيكية... إلخ ، حتى أن المراهق و المراهقة الذي لم يجد منفذ أو إجابات لأسئلته في الواقع أصبح يبحث عنها في الافلام و المسلسلات التي تشوه كثير من الحقائق و تهون بعض الممنوعات مركزة على الاثارة الجنسية و العنف و التي لا يقبلها المجتمع فأصبح امرا عاديا و دائما أن نشاهد مشاهد العنف و الجرائم في كثير من الافلام التي تصور المجرم في ثوب بطولي و تضع مكافح المجرم كالشرطة في موقف هزلي ، كما و تقدم العديد من الافلام الغربية صورة للعائلة المشتتة التي لا تشبه العائلة الجزائرية بتاتا لا من حيث مرجعيتها الدينية و لا نظام العلاقات القائمة بين الزوج و زوجته و بين الابوين والأولاد ، فأصبحنا نجد شبابا بتسريحات غريبة لا وجود للجمال و الذوق فيها وفتيات بلباس لا مرجعية اجتماعية و لا تاريخية و لا دينية لأصل وجوده في المجتمع الجزائري ، بل وأصبحنا نسمع عن علاقات عاطفية بين شباب و شابات في اولى سنوات المراهقة بل وعن تجاوزات أخلاقية كبيرة رسمت صورتها الاعتيادية و المنكررة برامج التلفاز المستوردة أو المتابعة في القنوات الغير محلية خاصة الغير أخلاقية منها ، ينبغي الإشارة هنا أننا بصدد الحديث عن دور التكنولوجيا في اختراق الخصوصية الثقافية للأسرة الحضرية الجزائرية و إلا فإن الحديث عن آثار تكنولوجيا الاتصال موضوع يصعب حصره و ضبط كل جوانبه ، خاصة مع وصولها حتى إلى تهديد الهوية اللغوية للمجتمع الجزائري بحجة التبسيط فأصبحنا نسمع مصطلحات لا سياق تاريخي لها بل أصبحنا نكتب بلغة أجنبية كلاما باللغة العربية.

هذا من حيث مضامين المواد الإعلامية و الاتصالية ، أما من حيث العلاقات الاجتماعية فبالرغم من كون شبكة الانترنت و مختلف تكنولوجيات الاتصال تعزز العلاقات الاجتماعية بين الاصدقاء و الاقارب من خلال زيادة عملية التفاعل و التواصل بين الافراد إلا أن تأثيراتها السلبية تطرح عدة تساؤلات و قضايا تخص فتور العلاقات الاجتماعية المختلفة داخل الاسرة فمثلا أصبح اليوم الهاتف النقال هو البديل في التفاعل مع الافراد و الجماعات فبدلا من زيارتهم و الوصول إليهم أصبح الهاتف النقال هو الوسيلة المفضلة عند الكثيرين في التواصل مع العائلة خصوصا إذا كانت المسافة بعيدة ، ومع تعدد استخداماته أصبح الاكتفاء بالرسائل النصية للتهنئة أيام الأعياد و المناسبات بالإضافة إلى كل هذا تسببت تكنولوجيا الاتصال بالعزلة حيث يفضل الكثيرون الجلوس على مواقع التواصل الاجتماعي ساعات طوال في المقابل غياب الجلسات العائلية الحميمة مع أفراد الأسرة .

خاتمة

و في الأخير يمكن القول أن تكنولوجيا المعلومات رغم أنها حققت و لبت احتياجات كثيرة للبشرية من حيث أنها عملت على محو الأمية و رفع مستوى التعليم ، العمل على جلب الراحة و الرفاهية للمستخدمين من خلال التقليل من الوقت و الجهد و المال ، اتاحة أقصى درجات السرعة في نقل المعلومات و استقبالها ، توفير كم هائل من المساحة المطلوبة لتخزين المعلومات أو نقلها ، اتاحة للمتلقى درجة من التفاعل الإيجابي مع الوسائل الاعلامية ، زيادة المعرفة و التعليم بواسطة التكنولوجيا الجديدة ، تسهيل العملية الانتاجية و تسريعها و رفع مستوى الجودة ، وجود اختيارات و بدائل (مئات القنوات) ، إلا أن عيوبها هي الأخرى كثيرة فنجد مثلا انقسام الجمهور العريض الواحد إلى عدد كبير من الجماعات الصغيرة و ذات اتجاهات متباينة مما يؤدي إلى نقص أرباح المنتجين و الناشرين نتيجة قلة عدد الأفراد

الذين يخاطبونهم و تقايلص الخبرات المشتركة لمعظم أفراد المجتمع ، زيادة الفجوة بين من لديهم الأموال و التكنولوجيا و من لا يملكونها و بالتالي انقسم المجتمع إلى طبقات فبدلا من طبقة الأغنياء و طبقة الفقراء أصبحنا نتحدث عن طبقة الأثرياء معرفيا و طبقة الفقراء معرفيا ذلك أنه ليس بمقدور فئة كبيرة من افراد المجتمع اقتناء التكنولوجيات الحديثة للاتصال ليس في المجتمع الواحد فقط و إنما في المجتمع الدولي أيضا ، عدم القدرة على فرض الرقابة على كثير من القنوات الفضائية و المواقع الالكترونية من قبل الوالدين على أبنائهم فأصبحت في النهاية هذه التكنولوجيات منافسا يمارس مهمة التنشئة الاجتماعية بالموازاة مع الاسرة .

إن سعي الانسان المستمر وراء مختلف الاكتشافات يهدف لتسهيل حياته ، و أي تكنولوجيا مهما كان الغرض منها لها وجهان الأول سلبي و الآخر ايجابي خاصة إذا تحدثنا عن تكنولوجيا وجدت في مجتمع يتحكم فيها ثم صدرت لآخر ، لذا ينبغي على هذا الآخر على غرار الجزائر أن يتخذ تدابير مدروسة في التعامل مع هذه التكنولوجيا بدءا بالحرص على استيراد التكنولوجيا وليس الثقافة ثم العمل على خلق سوق داخلية لإنتاج التكنولوجيا من خلال تشجيع و رفع مستوى البحث العلمي ولعل المجتمع الياباني خير مثال على ذلك رغم أنه من الصعب بمكان أن تستورد التكنولوجيا بمعزل عن الثقافة إلا أنه يمكن الحديث عن تقليل نسب الاستيراد خاصة و أن منطق المنافسة لمالك المعلومة يحكم وفق مبدأ السيطرة على الآخر و منع وجوده الثقافي و الاقتصادي و الحضاري .

قائمة المراجع:

- 1- أحمد زاهر: تكنولوجيا التعليم وتصميم وانتاج الوسائل التعليمية، الطبعة الأولى، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 1997.
- 2- بيار بورديو: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول (ترجمة درويش الحلوجي)، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الاعلامية، الطبعة الاولى، دمشق، 2004.
- 3- حسن عماد مكاوي ومحمود علم الدين: تكنولوجيا المعلومات والاتصال، الدار العربية للنشر والتوزيع، طبعة الاولى، مصر، 2008.
- 4- محمد الفاتح حمدي: تكنولوجيا الاتصال والاعلام الحديث، مؤسسة الكونز الحكمة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الجزائر. 2011.
- 5- محمد تيمو ومحمود علم الدين: الحاسبات الالكترونية وتكنولوجيا الاتصال، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الاولى، 1997.
- 6- نبيل علي: العرب وعصر المعلومات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994.
- 7- عبد الباسط محمد عبد الوهاب: استخدام تكنولوجيا الاتصال في الانتاج الاذاعي والتلفزيوني، المكتب الجامعي الحديث، 2005.
- 8- عبد الرزاق جلبي: دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1984.
- 9- فضيل دليو: الاتصال مفاهيمه، نظرياته، وسائله، دار الفجر للنشر والتوزيع، الاردن، 2003.
- 10- فضيل دليو: التكنولوجيا الجديدة للإعلام والاتصال، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، الاردن، 2010.
- 11- غسان منير حمزة: الهويات الوطنية والمجتمع العالمي والاعلام، دار النهضة العربية، 2002.